

العلامة حميد الدين الفراهي وشعره العربي

- فخر عالم بدر الدين الأعظمي¹

ترجمة من الأردوية: مرزا نفيس بيگ²

ولد العلامة حميد الدين الفراهي عام 1280 هـ الموافق 1865 م في أسرة دينية لمحافظة "أعظم كره" التي أنجبت مؤرخ الإسلام العلامة شبلي النعماني. بدأ الفراهي دراسته بقراءة القرآن الكريم، فحفظه عن ظهر القلب، وتعلم -كدأب زمانه- اللغة الفارسية، ثم اشتغل بطلب العربية وعلومها على يد ابن خاله العلامة شبلي النعماني. يقول الشيخ أمين أحسن الإصلاحي في دراسته العليا:

"أراد العلامة الفراهي -رحمه الله- بعدما تلقى علوم العربية من شبلي النعماني أن يستفيد من حلقات دروس العلماء البارزين في ذلك العصر، فجلس في حلقة الشيخ أبي الحسنات عبد الحي الفرنجي محلي التي كانت ذائعة الصيت حينئذ، للحصول على الفقه، ولكنه لم يتمكن من مجالسته لمدة طويلة، لأنه كان مطبوعاً على البحث والاكتشاف منذ نعومة أظفاره وزادته في هذه الصفة مصاحبة العلامة شبلي النعماني، حتى غادر لکناؤ إلى لاهور والتحق فيها بالأديب الذي يشار إليه بالبنان ألا وهو الشيخ فيض الحسن السهاري بوري.

كان الشيخ السهاري بوري بروفيسوراً في كلية أورينتال بلاهور، وفاقده النظر في مجال الأدب العربي في البلاد كلها، وكان العلامة شبلي تلميذاً له في الأدب، فاستفاد العلامة الفراهي من مصاحبته استفادة كاملة، وحلّاه الشيخ بالعلوم الأدبية بغاية العطف والحنان".³

¹ متخرج من مدرسة الإصلاح بسرائ مير، أعظم كره

² طالب في ماجستير في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دلهي، الهند

³ مختصر حيات حميد لمرتبته عبد الرحمن ناصر الإصلاحي، ص 30

يقول العلامة السيد سليمان الندوي:

"أنهى العلامة دراسته العربية، وهو ابن عشرين سنة، عام 1390هـ الموافق 1884م وبرع فيها، حتى أحرز قصب السبق على أساتذته، كما يدل عليه ديوانه العربي".¹

ويقول الشيخ أمين أحسن الإصلاحي عن شعره:

"كان مطبوعاً على الشعر وذوقه، فأتقن اللغة الفارسية في مدة قصيرة، حتى بدأ يقرض القصيدة على منوال الأساتذة.... قدم العلامة شبلي قصيدة له بالفارسية إلى أستاذه الشيخ فاروق الشرياكوتي وسأله عن صاحبها بدون ذكر اسمه، فأجاب بعد إمعان النظر فيها - وكان الشرياكوتي عالماً شهيراً وناقداً ممتازاً في عصره -: إنني لا أستطيع أن أنبئك عن قائلها ولكن أسلوبها يدل أنها من كلام الأساتذة القدماء".²

ومع أن مجاله الحبيب الأصلي كان هو تدبر القرآن والنظر فيه، كما هو معروف بمفسر عظيم ومحقق بارع في العالم الإسلامي، إلا أنه كان ينظم الشعر أحياناً، وذلك بسبب ذوقه الفطري له ومقدرته الكاملة عليه، ولكنه كان من المقلين في هذا المجال، مما أدى إلى اختصار ديوانه. وبصرف النظر عن كميته، يكفي أن يجعله من الشعراء المتقدمين.

والحقيقة هي أنه قد جمع الكثير في القليل فيتمتع كلامه الوجيه ببحر من المعاني والحكم وبنموذج عالٍ من الفصاحة والبلاغة، كما يجمع بين كلمات سهلة تحضن معاني عميقة، وأسلوب فصيح، وبيان رشيق، فهو بلا مزية عمل رائع في مجال الأدب العربي، وتذكر - على سبيل المثال - قصيدته التي قالها تهنئة للعلامة شبلي النعماني على تكريمه بشرف "شمس العلماء"، نقدم هنا بيتين منها:

¹ المصدر نفسه، ص 5

² المصدر نفسه، ص 28

إن كان تلك الشمس شمس سمائها فلصرت شمس العلم والعلماء

إذ أنت شمس العلوم سماؤكم فالشمس شمسي والسماء سمائي¹

وترى في كلامه بسبب شغفه البالغ وعلاقته العميقة بالقرآن الكريم ومضات أسلوبه ومعانيه حتى لا يقرأه أحد إلا وهو مضطر إلى أن يلفظ أنه يدور حول القرآن فحسب. فقوموا بمطالعة كلامه الذي صوّر فيه الإيمان في ضوء الآية الكريمة: "اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (سورة النور)²

فمثل الإيمان يلمع في قلب سليم للتعقير

مثل سراج في زجاج كمثل الكوكب السدي لماع

في وسط مشكاة ويوقد من زيتونة في خير أقطاع

من البلاد لا بشرقية ولا بغربية أصقاع

كاد يضيء زيتها قبل أن تمسه النار لاشماع

نور على نور ومن يهده الله يهتد بأسراع³

¹ ديوان المعلم عبد الحميد (جمعه: بدر الدين الإصلاحي، مطبعة الكوثر، سرائي مير، أعظم

كره)، ص33

² سورة النور: 35

³ ديوان المعلم عبد الحميد، المصدر نفسه، ص13

ومن الأسف أنه لم يصل إلينا سوى كلامه الوجيز، فضاع أكثره بسبب إهمال أبناء الزمان وعدم اهتمامهم به. يقول الشيخ بدر الدين الإصلاحي جامع ديوانه في مقدمته:

"قد جمعت في هذا المجموع ما وجدناه في مخطوطاته ولكن أخبرنا بعض الثقات أن له قصائد لم تصل إلينا أيدينا، فيخطر ببالنا إن كان له شيء ما عداها فهو إما أن يكون قد تلاعبت به أيدي الأيام وأفنته وإما أن يكون موجودًا عند أخلائه أو تلامذته فإن كان عندهم شيء منها فالرجاء منهم أن يتفضلوا به علينا".¹

إن العلامة لم يجعل نفسه كالشعراء الآخرين الذين يمثلون هذه الآية: "وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٣٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾"، بل دائمًا نظر إلى قوله تعالى: "إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٣٧﴾".

فلذلك لا تشوب مجموعته مسحة من الخرافة والأمور التافهة، فلم يتناول في شعره موضوعًا خد الحبيب وشعره وشفتيه وقصة الزهر والبلبل مثل كلام الشعراء الآخرين، بل يتصف شعره بتراجم صدق الحياة الراسخ وحقائق الكون الثابتة، بدلًا عن ذكر الكأس والخمر. وإنه بشعره أطلع الإنسان على غاية وجوده، ودعا كل من ألهته هذه الدنيا المتألئة بما فيها، إلى معرفة الله الخالق بالآيات المنثورة في الكون من الشمس والقمر والنجوم وما إلى ذلك، كما أخبره بأن فيها أسبابًا لا تحصى لهدايته بشرط أن يبعث عقله على التفكير والتأمل وأن يعتصم بحبل الحق حتى لا يكاد يتخلص في أي مجال من مجالات الحياة:

سر مع العقل أينما سارا در مع الحق حيثما دارا

¹ مقدمة ديوان المعلم عبد الحميد، المصدر نفسه

العدد الخاص مجلة الهند

لا تهولنك ليلة عكرت إن بعد الظلام أنوارا
إن في الليل والنهار وفي الشمس والنيرات تذكرا
راكعات مسبحات يدعو ننا للوجود أسجارا¹

شعره ليس للفرح والسرور، وإنما هو رسالة هادية للإنسان، فدعا به بني آدم إلى الخروج من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الهداية والإيمان، وفهم به الناس سر خلود الآخرة وتفاهة الدنيا، وأعلم الغافل بأنه سينفذ ما عنده من الأموال والأولاد والنعم والرخاء وهو ملاقي ربه يوم لا تنفع هذه الأشياء، فسيبقى فارداً، ولا يجد غنى عن التحسر على ما فات.

فها هي قصيدة له بعنوان "غفلة الإنسان"، تحتوي على أربعة عشر بيتاً تعبر عن مشاعره وترشد الإنسانية:

أما للناس أحلام	أهم في السكر نوام
وهم وراد حوض المو	ت أصرام فأصرام
فأبباء وأبنباء	وأخوال وأعمام
وإخوان وخـلان	وإخوان وأحلام
فخـلاتهم قرابات	وأنساب وأرحام
وريب الدهر يبرهم	وتوهي العظم أسقام
فحبـل الموت ممدود	وحبل العيش إرمام
وهم باللهو واللذا	ت مشغولون ما داموا

¹ ديوان المعلم عبد الحميد، المصدر نفسه، ص 35

العدد الخاص مجلة الهند

بجمع الوفـر منهـم و ن والآثم هـام
لهم بالبغـي تهمـام وبالفحشـاء إبـرام
وهم لا بد محشـورو ن يومًا وهـو أيـام
من النعماء مسـؤولو ن والسـائل عـلام
سـؤالاً فيه إـلام و إلزام وإفحـام
وتفجـيع وتقرـيع وتخضـيع وإرغـام¹

وبجانب البحر الصغير تمتاز هذه القصيدة بسهولة العبارة وفصاحة الأسلوب غير أنها سهل ممتنع، لا تصنع فيها ولا تكلف، مع أنها خالية عن الحشو والزوائد، بعيدة عن التعقيد اللفظي والمعنوي، سالمة من الألفاظ الضخمة والتراكيب الهائلة، وبذلك يتميز شعره عن غيره.

مجموعته الشعرية تنبئ عن شخصيته، فتوجد فيها غير المعاني الدينية والخلقية، أبيات تعكس صورة شخص يملك في صدره قلبًا نابضًا حزينًا يتململ، مفعمًا بعاطفة الود الخالص لقومه، وقلبًا يضطرب لما رأى دم المسلمين مهراقًا بغير حق، فتشغله آلام الآخرين عن آلامه.

ولأجل ذلك يحتوي معظم كلامه على قصص دامية تلمع فيها السيوف وتسيل الدماء. وإنه حينما رأى بني آدم حاملي رسالة الأمن والسلام يتنازعون فيما بينهم كالبهائم، تلملم مما يرتكبون من الأعمال الشنيعة، مما أدى إلى أن صيغت عواطفه المتموجة في صدره في قالب الشعر.

إلى جانب الألم والكرب، تتحلى هذه الأبيات بالسلاسة والفصاحة والدقة والروعة، تترك أثرًا عميقًا في أذهان القارئ، صوّر فيها اعتداءات إيطاليا الملتبهة

¹ المصدر نفسه، ص 10

العدد الخاص مجلة الهند

وموقفها السفاك وعملها الفادح بأسلوب حقيقي حتى لا يقرأها أحد إلا وهو يحس بألم وكآبة واحتراق في قلبه، يبدو أنها ليست مجرد مجموعة الكلمات بل هي صورة حية لتلك الحوادث الدامية. وإليكم شطرًا من أبياتها:

يا عين بكى بالهوامع لا ترقأن لك المدامع
قتلى طرابلس الذ بن تطحطحت بهم القوارع
نبكي على إخواننا أهل المكارم والدسائع
دهمهم الروم الفوا تك بالمراكب والمدافع
جاءوا على حرد بجم عهم فضاق بنا المفازع
دخلوا المدينة يقتلو ن بها المشائخ والرعارع
قتلوا المراضع في المضى جع والضوارع في الشوارع¹

ذكر اعتداءات قوات إيطاليا وعدوانها على مسلمي طرابلس بأسلوب مؤلم جدًّا، يدل على تعاطفه وحزنه وصداقته مع الإنسانية وحبه الخالص لقومه، فيقول في إحدى قصائده:

نبكي على إخواننا | بين القتيل ومن حبس
نبكي لربيات الخدو ر شرقت بالماء السلس²

وكان قد تضاعف طغيان الباطل وظلمه تضاعفًا كثيرًا في جانب، وفي جانب آخر كان قد بلغ تكاسل الأمة وتساهلها أوجه، وقد كانت نموذجًا لقوله تعالى: "أَشِدَّاءُ

¹ المصدر نفسه، ص 17

² المصدر نفسه، ص 15

عَلَى الْكُفَّارِ رَحْمَاءُ بَيْنَهُمْ"، وكانت مزقت جمع قيصر تارة، وخربت تاج كسرى تارة أخرى. فأيقظ العلامة الأمة بكلامه من السبات العميق الجامد، ونفخ فيها روحًا جديدة للحياة، ونبأها أنه قد حان وقت خروجها من بيوتها حاملة أسياها لمعاونة إخوانها المظلومين، وأنها كانت سيوف الله، وأن الكفر كان مرتعشًا أمامكم والباطل منقادًا لكم.

إنه دعا العالم الإسلامي كله إلى شد منزره لنصر أبناء طرابلس المغشومين، والقصيدة كلها مليئة بالألم الحاد والأثر البالغ مع كونها سلسلة سهلة، ومراعاة الأسلوب القرآني والكلمات القرآنية زادت تأثيرًا، ومن ميزات أنها مزودة بالتعبيرات القرآنية بشكل فصيح ورشيق، وذلك كله يظهر شغفه البالغ وتأثره العميق بأسلوبه:

قوموا لنصر الحق من نوركم	واستنفروا من كل مرد وشيب
مستنصرين الله ينصركم	بنصره الموعد غير الكذوب
كنتم سيوف الله من وقعها	في الكفر والأوثان تبقى ندوب
فالآن يا إخوان ما بالكم	قد مسكم من الجهاد لغوب
ما بالكم لا تنصرون وقد	حلّ على الإسلام يوم عصب
يبلوكم الله بياس العدى	فإن أمر الله يبلو القلوب
إن تصبروا لله لا يخزكم	فإن لله علينا رقيب
يا قومنا إن تصبروا يأتكم	نصر من الله وفتح قريب ¹

¹ المصدر نفسه، ص 25

العدد الخاص مجلة الهند

كتب هذا الرثاء لبني آدم، فبكى وأبكى، وهذا كله مما خلدت ذكرياته في قلوب
الناس على مر الزمان وطوله حتى لا تكاد عواصف الزمن الهوجاء تطمسها للأبد.
إنه ليس معنا اليوم، ولكن أغانيه المعسولة تملل الأكباد وتثلج الصدور.

لعمرك ما وارى التراب فعاله ولكنّه وارى ثياباً وأعظما